"صور عن حرب بلا شواهد" لميخائيل فون غرافنريد

كأن كل ما يأتي من الجزائر يصيبنا في مقتل

معرض

هل تصير هذه الصور صيغة للتذكر، أم صيغةً للنسيان؟ أمام صور الموت المعلن، التي ينشرها الزرقاوي واخوته، من قطع حيّ للرؤوس وتفخيخ للسيارات في الساحات العامة، وأمام حالنا الآن من صور الموت التي تجاهر بها الجهات القاتلة والمقتولة معاً، هل يصير لنا عزاء في الموت خفيةً، أو في رؤية الموتى خلسةً؟! تقدم "أمم للتوثيق" معرضاً عنوانه "الجزائر- صور عن حرب بلا شواهد" للمصور السويسري ميخائيل فون غرافنريد، يستمر إلى العشرين من الشهر الجاري في "هنغار أمم" الكائن في محلة الغبيري، يتضمن سلسلة من الصور البانورامية في معظمها، تسعى الى أن توثّق بالأبيض والأسود للخوف المزروع في عيون الناجين من المجزرة، وصوراً أخرى لتوثيق بعض قليل من حياة يومية. يرافق المعرض عرض لشريط وثائقي أعدّه المصور نفسه "عن حرب بلا شواهد – أعرف يا جزائر أنك تعرفين".

قد نكون قساةً بعض الشيء في أن نحكم على صور ميخائيل فون غرافنريد بأنها، إن شهدت، فهي لا تشهد إلا أنها لم ترَ الموت الذي حل. ليست هذه الصور سوى عملية ندب، أو نواح، على أشخاص لا يزالون أحياء. صور صامتة بلا أبطال، هي خيالات أماكن تدّعي أنها أماكن أصيلة. نرى ذلك واضحاً في ادعاء الشبّاك أنه مكان، وفي إدعاء اليد الحاملة للسلاح أنها يد شرطي، وفي ادعاء عين المرأة المختفية خلف علم وسياج حديد وحجاب أنها وجه، وادعاء الذقن الطويلة غير المشذبة أنها "مجاهد إسلامي". كل هذه الخيالات، لا تتكلم. هي صامتة. لذلك كان لا بد من حكاية تخبر عنها، كان لا بد للمصور أن يروي معلّقاً على الصور: "على الشاطئ بالقرب من الجزائر العاصمة، الوالدة في الظل، البنات يتشمسن على الرمل، الوالدة تراقب الفتيات، شبان يقتنصون النظر إلى أجسادهن البضة". إلا أننا عندما ننظر إلى الصورة المعنية بهذا التعليق، نرى أن الوالدة ترفع شمسيتها منزعجةً من الشمس، تنظر إلى الناحية المعاكسة للفتيات بالمايوه، كما أننا لا نرى أي عين تختلس النظر إلى الأجساد البضة، إلا عين المصوّر! يأتينا تعليق في الوثائقي من رشيد، اللحية التي تدّعي أنها إسلامي، يقول رشيد: "هؤلاء النساء الأنصاف عاريات، أنا أسمّي هذا إرهاباً!". فإن كانت عين المصور هي التي تختلس النظر، وصورة الاسلامي الحاكم بشبهة الارهاب على الفتيات، هي لحية تنقصها العين، فالأجدر بتلك العين أن تلتقي هذه اللحية كي تكتمل شبهة الموت. اللحية تتكلم معلّقةً على الصورة الصامتة. اللحية تحكم على الصورة الصامتة. فما العين إذاً إلا وسيلة اللحية للرؤية ثم النطق بالحكم الذي تريد. لذا كان لا بد من البحث عن الموتى الأحياء الذين في الصور. كان لا بد من أن يعود المصور كي يجعل الموتى يتكلمون، كي يجعل الناجين يتكلمون بوصفهم الموتى الذين لم يموتوا بيولوجياً بعد. لذلك عاد فون غرافنريد إلى الأرض التي التقط فيها الصور قبل عشر سنين، وخلالها، كي يبحث عبر شريطٍ وثائقي عن الناجين من صوره هو، لا من يد القتلة. إذ أن كل الجزائريين الذين اجتازوا حمّام الدم الذي حصد مئات الآلاف من القتلى، هم في الضرورة ناجون. أما ما يميز الشخوص الذين يعرضهم شريط فون غرافنريد، فهو أنهم نجوا من صوره. لم يصوّر فون غرافنريد الجثث، ولم يصوّر القتلة، بل صوّر الذين شهدوا الموت ولم يموتوا. كأن الصورة تقول "هؤلاء هم الذين حصلت لهم المجزرة!". ويزيد على هذا الفعل ضراوةً أن الصور التقطت من غير إذن من الشخوص المصوّرين، وهو الأمر الذي يرويه غرافنريد نفسه في شريطه الوثائقي. ذلك أن الوحيد الذي لا نطلب إذنه في أخذ صورته هو الميت فعلاً. أما الحي فهو الذي يمتلك من الأمر صورته. شخوص فون غرافنريد هم اموات حتى لو أنه وثّق لنا عيشهم الذي يتقاطع مع الحياة، كما تتقاطع الأحرف في لعبة الكلمات المتقاطعة.

يدعونا البيان الترويجي للمعرض إلى مقارنة "صعبة" (كما يعبّر البيان نفسه) بين "الحرب الأهلية" التي عصفت بالجزائر خلال أواسط التسعينات من القرن الماضي، وتلك التي عصفت بلبنان. ذلك أن الصور كما يقول البيان في استطاعتها أن تذكّرنا بأشياءٍ عن ماضينا ومغامرات العنف الأهلي التي أوغلنا فيها. إلا أن أول ما يطالعنا ليلاً، بعد انتهاء المعرض في الساعة التاسعة، هي أنباء، أو شائعات، عن مقتل شابين في أحياء بيروت. فهل اللبنانيون في حاجة فعلاً كي يروا صوراً ليتذكروا ماضيهم، أم أنهم هم الماضي الذي يجاهدون في صناعته؟ هذا لا يدخل في باب التندر، بل في باب الذاكرة إن وجدت. ها نحن ذا، نصنع صوراً جديدة، وندعو مصوّرينا ومصوّري العالم إلى مصدر جديد للرزق. موتنا الذي نصنعه هو مصدر رزق المصورين الذين يأتون وفي نفوسهم الطيبة أمل أن يؤكدوا للعالم أن هناك أناسا يموتون في هذا البلد. تقول إحدى الشخصيات في شريط فون غرافنريد الوثائقي مستنكرةً صوره: "أين النساء المتظاهرات في الشوارع، أين النساء اللواتي يتبرجن رغم معرفتهن بأنهم إذا فعلوا ذلك هن عرضة للقتل، أين هذا التحدي وهذه الحياة؟!". نحن نقول معها: أين هذا التحدي، أين هذه الحياة؟! فكأن ميخائيل فون غرافنريد يقول لنا: "كل صورة من الجزائر سوف تصيبنا في مقتل!".

علي زراقط

تصوير ميشال صايغ